مع الرفيق حاتم سلمان
الذي أطلقت عليه صفة المثقف الشفهي

بين المثقفين العرب الذين أعرفهم، وهم كثر، عدد متميز ممن لا تشير إلى تمزهم كتابات وكتب، بل فكر نيّر وعقل نقدي منفتح على الحديد من الأفكار والمفاهيم وعلى التحولات التي يحفل بها العصر في المجلات والإتجاهات كافة. ولعل ما يوصلف به هؤلاء المثقفون هو أنهم مثقفون شفهيون. وينتمي إلى هذا النوع من المثقفين بامتياز اللبناني حاتم سلمان، رغم أنه ترك بعضاً من إسهامات عميقة في البحث في التراث العربي خصوصاً، وفي الفكر الحديث ، الماركسي منه على وجه التحديد. وجاءت إسهاماته تلك في عدد من المقالات والمحاضرات، نشر بعضها ولم ينشر الكثير منها، للأسف.

رحل حاتم سلمان في عام ٢٠٠٤ صريع مرض عضال أودى به وهو لم يكن بلغ الستين من العمر. كان حاتم، منذ وقت مبكر، مقداماً في البحث عن المعرفة في ميادينها المختلفة، ومقداماً في امتلاك أدواتها وعناصرها الأساسية. انتسب، وهو في أول شبابه، إلى الماركسية كفكر، وإلى الحزب الشيوعي اللبناني كتنظيم سياسي يحمل مشروعاً للتغيير باسم الإشتراكية. لكنه كان، منذ أن انتسب إليهما، أعني المرجعية الفكرية الماركسية والحزب الشيوعي اللبناني، متطلباً إلى حدود التمرد. كان كثير البحث وكثير الأسئلة. وكان مشاكساً، حتى وهو في أدق أدائه الحزبي وفي أدق علاقته التنظيمية بالحزب. لم يكن يقبل أن تملى عليه المواقف والآراء والأفكار إملاءاً. كان يعتبر نفسه، حتى وهو في التنظيم عضواً عادياً، ثم كادراً وسطياً، ثم عضواً في لجنة التثقيف الحزبي، مؤهلاً للإسهام في تقرير سياسة حزبه، ومؤهلاً للإسهام في إغناء فكر الحزب. وكان يستند في ثقته تلك بنفسه، إلى قدرة كبيرة عنده على القراءة في متون الكتب، كتب ماركس وإنجلز ولينين وسائر الماركسيين الكبار، وكتب المفكرين الذين اجتهدوا في تطوير الفكر الماركسي، وكتب الذين انتقدوا الماركسية بحق أو بغير حق. وكل من هذين الإجتهاد والنقد هو، في أي حال، حق طبيعي لهؤلاء المجتهدين من أمثال حاتم سلمان، حقهم في الإجتهاد وفي النقد، لا ينازعهم فيه منازع. بهذا المعنى فإن حاتم الماركسي الإنتماء بجدارة وبفهم عميق وخاص به للماركسية، كان مؤهلاً لأن يكون مساهماً بإبداع في قراءة جديدة لأفكار ماركس، في ظروف بلداننا وفي ظروف العصر، لو أنه تابع بحثه في هذا الإتجاه بانتظام، ومن دون انقطاع كما فعل. إلا أن حاتم لم يتوان عن القيام بهذا الإسهام الذي كان مؤهلاً له عن تقصير متعمد منه. بل إن أسباباً خاصة عديدة، قاهرة في بعض الأحيان

وخارجة عن إرادته، وضعته في ذلك الوضع الذي لم يكن يريده لنفسه. ذلك أنه مر بصعوبات نفسية لا أستطيع أنا صديقه القديم، ولا يستطيع أحد من أصدقائه ومن أقربائه أن يقرر أسبابها الدفينة، حتى ولو بدت بعض عناصرها بالغة الوضوح. إلا أن ما ضاعف تلك الصعوبات كان وقوعه أسير مرض تنوعت مظاهره واستقرت أخيراً في النوع الذي أودى بحياته. إذ هو ظل لأعوام عديدة أسير مرض الإكتئاب الذي يضعف الإرادة عند صاحبه، ويقلق حياته، ويدخل إلى جسمه أمراضاً خبيثة تستعصي على العلاج. كان خلال أعوام عديدة يتنقل من بلد إلى آخر، طوعاً أو كرهاً. والطوعية والإكراه لهما عند حاتم تفسيرهما الخاص. وظل على هذا النمط من التنقل والحيرة والإرتباك عصباً عن إرادته، وغصباً عن تعلقه بالحياة.

لقد ربطتني بحاتم سلمان صداقة قديمة، عندما كنت في موقع قيادي في الحزب، وكان هو في موقع كادر حزبي وفي موقع مثقف عضوي منتم إلى الماركسية وإلى التراث الثقافي العربي وإلى المشروع الإشتراكي للتغيير داخل الحزب الشيوعي اللبناني. لكن تلك الصداقة اتخذت طابعاً مختلفاً عندما خرجت أنا من موقع القيادة، وأصبحت وإياه في موقع واحد لا تراتبية فيه. لذيك فقد كانت الأعوام العشرة الأخيرة من حياته هي الأجمل والأكثر حيوية في علاقة الصداقة بيننا. كانت تلك الخقبة مليئة بالجدل الصاخب بيننا، الجدل الذي كنا نحترم فيه آراء بعضنا، حتى ونحن نختلف اختلافاً كبيراً. لكن اتفاقاتنا التي كنا نتوصل إليها بالجدل الصاخب كانت أكثر من اختلافاتنا. وأعترف أنني في كثير من تلك الجدالات تعلمت من حاتم. إذ كان أوسع ثقافة مني في أمور عديدة، رغم أنني كنت أكثر تجربة منه. وكنت أعترف له بذلك. وكان ينكر عليَّ ذلك بتواضعه وبإصراره على احترام الموقع الذي كنت فيه والتجربة التي كدستها والعمر الذي أسبه فيه بأعوام عدة.

عرّفني حاتم إلى بعض أصدقائه وعرّفته إلى بعض أصدقائي. وخضنا نقاشات هنا وهناك. لكنني اكتشفت ذات مرة أنه لم يطلع على بعض كتاباتي السابقة، التي كنت أعتبر، بحق أو بغير حق، أنني فتحت فيها مجالاً جديداً للنقاش، لا سيما في العلاقة بين الماركسية والدين، وفي العلاقة بين الشيوعيين والعلمانيين وبين المؤمنين المستقلين أو المنتمين إلى أحزاب سياسية دينية، في النضال من أجل التغيير الديمقراطي. وبخلاف عدد من الشيوعيين في مواقع مختلفة رأى حاتم أن محاولتي كانت تستحق الإهتمام، رغم اعتراضه على ما جاء في كتاباتي تلك من أفكار كان يرى فيها أنها تتنافى مع مقدماتي الفكرية الأساسية. وناقشني كثيراً. وتقاربنا في بعض المواقع، وبقينا على خلاف في مواقف أخرى. لكننا اتفقنا على أن نتابع البحث في تلك المواضيع التي كنا نختلف بشأنها، وأن نشرك معنا آخرين في ذلك البحث. غير أن المرض الذي ..... حاتم وأعاق قدرته

على العمل والتفكير عطل مشروعنا. وخسرت فيه رفيقاً وصديقاً في الفكر، ورفيقاً وصديقاً في كل ما يتصل بالعلاقة الإنسانية بين بني البشر.

وأحب أن أشير هنا إلى أن حاتم كان صديقاً لكل من حسين مروة في بحثه في التراث وصديقا ولمهدي عامل في مشروعه الفكري. وكانت له مع الإثنين اتفاقات واختلافات. وهو ما لم أكن أعرف عنه إلا القليل، قبل أن أدخل في علاقتي الجديدو مع حاتم في العقد الأخير من صداقتنا.

حاتم سلمان المفكر الشفهي كان طاقة فكرية كبيرة. وكانت معرفته الجيدة بثلاثة لغات هي العربية والفرنسية والإنجليزية تؤهله للقراءة وللترجمة من وإلى كل من هذه اللغات. وهي شروط ساعدت حاتم المتوقد الفكر والمتدفق الحيوية والممتنع على التلقي والمستعد دائماً للجدل، ساعدته على التجديد في الفكر. لكن المؤسف هو أن كل هذه الشروط لم تجعل من حاتم صاحب تراث مكتوب. وهو في هذا الوضع أقرب إلى صديقه وصديقي الراحل فؤاد زحيل. وهذان المثقفان الماركسيان اللذان انتسبا إلى الحزب الشيوعي اللبناني بأمانة، يشكلان في تراثهما الشفهي نموذجاً للمثقف العضوي في تعريف غرامشي، المثقف الذي يظل، وهو في موقع الإلتزام بحزبه وببرنامج هذا الحزب، محافظاً على استقلاليته التي من دونها يفقد قدرته على الإبداع.